دراسة بِنْيويَة للرَّسائل الإخْوانِيَّة في العصر العبَّاسي

A Structural Study of informal letters in Abbasid Era

Dr. Salma Shahida
Assistant Professor, Arabic Department, NUML Islamabad
salma.toor47@yahoo.com

ABSTRACT

Informal letters being written between individuals are considered as an important part of human creative literature. In the informal letters, people usually use a straightforward way to speak their hearts and mind. That is why, they stand a unique position in the human creative literature. We know that the age of Abbasid period was a golden age, not only in terms of its scientific and empirical progress, but in terms of eloquence of Arabic language, too, both in prose and poetry; and it has enjoyed the intense scholarly studies over the centuries. But we notice that an area of Abbasid literature is not fully explored, that is, the informal letters, written by the writers, ministers, and caliphs for their personal reasons, not related to the formal matters. The reason for selecting these Al-Ekhwania epistles (the informal letters) is the availability of prosaic and poetic texts, which were written in the period covered by the intended study. It has its own literary merits, as well as, historical importance. These letters need to be studied with different aspects and angles to draw important conclusions for the sake of Arabic literature. This article has been divided to a preface, funoon bayaniah (tashbeeh,istiaarah and kinayah) and conclusions.

Keywords : Abbasid period, Empirical Progress, Eloquence, Informal letters.

المدخل

قد نَمَت الرَّسائل الإخْوانِيَّة في العصر العَبَّاسِي نموَّاً واسعاً ، تلك الرسائل التي تصوِّر عواطف الكتَّاب ومشاعرهم ، من تهنئة أو تعزية ، ومِن عتابٍ واعتذارٍ واستعطاف ، ومديحٍ وهجاء وغير ذلك ، وكانت هذه العواطف تؤدَّى في العصر الأموي شِعراً ، أمَّا في العصر العَبَّاسِي فقد زاحم فيها النَّثر الشِّعر بكمٍّ هائِلٍ منَ النتاج النَّثري ، ولا سِيَّما الرَّسائل الإخْوانِيَّة ، وأتاح لوفرة ذلك النتاج ظهور طبقة ممتازة من الكتَّاب الذين يُجيدون كتابة الرسائل إجادة رائعة ، إذْ كانوا على ثقافةٍ واسعة ، وكانوا يُعْنَونَ بتحبير كلامهم وتجويدهِ وحشْد كلِّ ما يمكن فيه مِن عنايةٍ فنيَّة ، فضلاً عن ذلك مرونة النَّثر ويُسْرِ تعابيرهِ وقُدْرَته على تصوير المعاني بمضَامِينها كافَّة ، قدرةً لا تُتاح للشِّعر لارتباطه بقواعد موسيقية معقَّدة من وزن وقافية إن الرَّسائلَ الإخوانيةَ في العصر العباسي تستحقُّ أنْ تُدْرسَ مِنْ جوانبَ مختلفة وأنْ تؤخذَ بعناية الدَّارسين والباحثينَ في مجال النَّثر العربي الفنِّي في العصر العبَّاسي . عصر البلاغة والثَّقافة العربيَّة . لذا جاءَ اختياري لموضوع (دراسة بنيوية للرَّسائل الإخوانية في العصر العبَّاسي)).

تناولت لفظة (الرِّسالة) في المعنى اللغوي والاصطلاحي ولفظة إخوانية في كتب اللغة والأدب ، ثمَّ تكلَّمت بشكلٍ موجز عن الرَّسائل الإخوانية.

مفهوم الرِّسالة في اللُّغة والإصطلاح

الرِّسالة لغةً

"اشتقَّت لفظة (رسالة) منَ المادَّة اللغوية (ر س ل) التي تدل على معان حسية عديدة أفاضت المعاجم العربية بتقصيها وعرضها ، ولعل أقرب تلك المدلولات ما ذكره الفيروز آبادي مِن أن (الرَّسَلُ) القطيع مِن كلِّ شئ والجمع أرسالٌ[1] . "وقد حدَّد الجوهري ذلك وقصَره على القطيع مِن الإبل والغنم"[2]. في حين ذهب صاحب اللسان إلى أنَّ (الرَّسَلُ): "الإبل قطيع بعد قطيع ، يُقال : أرسلوا أكثر رَسَلهِم ، وصاروا ذوي رَسَلٍ أي قطائع"[3].

الرِّسالة اصطِلاحا

"وردت (الرِّسالة) في العصر الجاهِلي بِمَدْلولٍ خاص ، إذْ كانَ يُراد بها ما يؤدِّيهِ الرَّسول إلى المرْسَل إليهِ عن طريق رواية الخبر والإبلاغ الشَّفهي ، وقد وردَ هذا المصْطلح في القرآن الكريم في مواضع عديدة إفراداً وجمعاً مُقْترناً . غالِباً . بِما يدلُّ على النَّقل الشَّفهي"[4]. ومِن ذلكَ ما وردَ في قولهِ سبحانه وتعالى على لِسانِ النَّبيِّ صالح (عليه السَّلام) مخاطِباً قومه: "فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ"[5]. وقوله عزَّ وجلَّ ، مخاطِباً الرَّسول (صلى الله عليه وسلَّم) : "يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ"[6]. وقد ورد هذا المصْطلح بصيغة الجمع مُتَضَمِّناً المدلول ذاته في قوله سبحانه وتعالى : "الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً"[7]. وقوله جلَّت قدرته: "لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً"[8].

مفهوم الرَّسائِل الإخوانيَّة

"وهي الرَّسائِلُ التي تجْري بينَ شخصينِ أو أديبينِ في شؤوونٍ لا تتعلَّقُ بالدَّولةِ أو الحُكمِ أو بقضايا رسميَّة وإنَّما هي رسائِلُ شَخصيَّة تُعرفُ بـ(الرَّسائِلِ الإخوانيَّة) ولا تحتاج إلى تمهيدٍ مطوَّل في تَعريفها كمصطلحٍ أدبي ، فهيَ فنٌّ قديم في الأدب العربي وُجِدَ في النَّثرِ كما وُجِدَ في الشِّعر"[9]."والرَّسائِلُ الإخوانيَّة (تشمل ما كان يجري مِنَ المكاتبات الشَّخْصيَّة بين اثنينِ أو أكثر مِن إخْوان الأدب"[10]. وتوصَفُ بأنَّها : "مخاطبة الغائب بِلِسانِ القلم ، وفائدتها أوسع مِنْ أن تُحْصَر مِن حيثُ أنَّها تَرْجُمان الجِنان ونائِبُ الغائِب في قضاءِ أوطارِهِ ، ورِباطُ الوِدادِ مع تباعُدِ البِلاد"[11].

"شاعت هذهِ الرَّسائل في بداية العصر العبَّاسي الأوَّل ، وكانَ الكتَّابُ يتأنَّقون في صياغتها ويُعنَونَ بديباجتِها ويُسْندونَها بآياتٍ قرآنيَّةٍ كريمةٍ ، وبعضَ الأشعار والحِكم والأمثال"[12]. وقد اشْتُهِرَ الكثير ممَّن يكتبونها ، مِنْ أمثال عبد الله بن المقفَّع ، ومحمَّد بن

زياد الحارثي ، وكلثوم ابن عمرو العتَّابي ، والجاحظ ، وأحمد بن يوسف ، وعبد الله بن المعتز ، وأبو العيناء ، وبِشْر البلوي ، وغيرهم مِنَ الكتَّابِ المتميِّزين الذينَ تطوَّرت هذهِ الرَّسائل على أيديهِم ، لأنَّهم نوَّعوا في موضوعاتِها وتوسَّعوا فيها ، واهتموا بتنميقِها وإيداعها ضُروباً مِنَ البيانِ والفَصاحة.

وقد شهدت الرَّسائل الإخوانية غير الرسميَّة في العصر العبَّاسي تطوُّراً ملحوظاً في أغراضها من حيث تعدُّد موضوعاتها ، وزيادة في نتاجها الأدبي ، وقد أسهم في ذلك كلِّهِ وجود كتَّابٍ بارزين يعدُّ معظمهم مِن أئمة البلاغة العربيَّة ، وهؤلاءِ هم الذينَ أضافوا إلى تلك الرَّسائل أغراضاً لم تكن أغلبها . سابقاً . معروفةً في هذا الفنِّ تحديداً ، وفضلاً عن ذلك فقد زيَّن الكتَّابُ تلكَ الرَّسائل بفنونٍ بلاغية مِن بيانٍ وبديع حتى جعلوها لا تقلُّ جمالاً عن القصائد التي تغنَّى بها شعراء عصرهم ، بل أنَّ مِنَ الكتَّابِ مَن كانَ شاعراً مُجيداً ، بيدَ أنَّهم لجأوا إلى كتابة الرسائِل الشخصية في موضوعاتٍ ومناسباتٍ لم تسعفهم فيها أبياتُ الشِّعرِ البليغة، وقد بدا جلياً مِن خلالِ مراجعة كتب الأدب والتاريخ القديمة ، مدى إقبال الكتَّاب على تحبير هذه الرسائل مقارنةً بما كانت عليهِ منذُ العصر الإسلامي وحتَّى نهاية العصر الأموي.

دراسة بِنْيويَة للرَّسائل الإخْوانِيَّة

تُؤَكِّدُ محاوِر هذا المبحث على أهميَّة هيكل النُّصوص التي تتَمثَّل بالإستهلال ، والتَّخلُّص إلى الموضوع ، وحُسْنِ الخِتام.

وينبغي على كاتِبِ الرِّسالةِ أنْ يَتَأَنَّقَ في ثلاثةِ مواضِعَ فيها : أمَّا الموضِعَ الأوَّل ، فهو المطلَع ، أو الاسْتِهلال. والموضع الثاني ، التخلُّص إلى الموضوع الرَّئيسي. والثَّالث ، حُسْنُ الخِتام[13]. وسَيأتي الكلامُ على كلٍّ مِنها فيما يأتي:

أوَّلاً : الإستهلالات

"وَرَدت لفظة الإستهلال في كتب اللُّغة : استهلَّتْ السماءُ وذلك في أَول مطرها ، واستهلَّ الصبيُّ بالبُكاء رفع صوتَه وصاح عند الوِلادة. ويُسمَّى القمرُ هِلالاً لِلَيْلتِين مِن أوَّلِ الشَّهرِ"[14]. والإسْتِهلالُ : "أنْ يَكُونَ مِنَ الوَلَدِ مَا يَدُلُّ عَلى حياتِه مِن بُكَاءٍ أوْ تَحْرِيكِ عُضْوٍ أوْ عَين"[15].

ثمَّ شاع مصطلح (الإستهلال) عند الأدباء والنقَّاد والبلاغيينَ القدماء ، حيث يتحدَّث ابن الأثير عن الاستهلال ويُسمِّيه الإبتداء ، وهو: "أولُ ما يطرقُ السمعَ من الكلام فإذا كان الإبتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعهِ"[16] وعند ذلك يُسمَّى براعة الاستهلال. "والمقصود ببراعة الاستهلال: (أن يُشيرَ المصنِّفُ في ابتداء تأليفه قبل الشروع في المسائل بعبارة تدل على المرتب عليه إجمالا وهي كون ابتداء الكلام مناسباً للمقصود ..."[17].

والاستهلال اصطلاحاً في النَّقد العربي محدَّدٌ واضحٌ ، ويُعَدُّ عنصراً من عناصر بناء العمل الأدبي خطبة أم قصيدة أم رسالة ، وله في عُرفِ نقدنا قواعد أو وظائِفَ منها : "جلب انتِبَاه القارئ أو السَّامع وشَدِّه إلى الموضوع ، والأخرى التلميح بأيْسَرِ القولِ لمعنى النَّص"[18]

ـ فقد تستهل بعض الرَّسائل بالبَسْملة ثمَّ الدُّعاء للمُرسَلِ إليهِ ، كما هو الحال في رسالة سهل ابن هارون في البُخل التي أرسلها إلى بني عمِّه من آل راهبون ، إذْ يقول فيها:

"بسم الله الرَّحمن الرَّحيم : أصلَحَ اللهُ أمْرَكُم ، وجمع شَمْلَكُم ، وعَلَّمَكُم الخَيرَ ، وَجَعَلَكُم مِنْ أهْلِهِ ،..."[19].

جاءت البَسملَةُ والدُّعاءُ اسْتِهلالاً لهذه الرِّسالة فقولُهُ : (أصلح الله أمركم... وعلَّمكم الخير...) ، دعاءٌ له دلالةٌ إسلاميَّة لأنَّ الكاتب يدعو مِنَ الله . سبحانه وتعالى . لِبني عمِّهِ بالصَّلاح لأمورهم وأنْ يجمع الله شملهم ، وقد أحسن الكاتِبُ بهذا الاستهلال ، لأنَّهُ يبدو ودِّياً مِنَ الوهلة الأولى ، فهيَّأ جوَّاً لِعَرض فِكرتِهِ ووِجْهة نظرِهِ والدِّفاعِ عنها.

ـ قد يكتفي المرْسِلُ بالبسملةِ ، دونَ الدُّعاء ، ومن ذلك رسالة أبي علي البصير في مَدْحِ عبيد الله بن يحيى بن خاقان :

"بِسْم اللهِ الرَّحمَن الرَّحِيْم: أوجَبُ المعْروفِ شُكْراً ، وأحْسَنُهُ عِنْدَ الأحْرارِ مَوْقِعاً ، معروفك عندي ،..."[20].

اختلف الابتداء في هذه الرِّسالة عن الرِّسالة السابقة مِنْ حيث خلُوُّه مِنَ الدُّعاءِ الذي يعقبُ البَسْملة ، فاقْتصر الكاتِبُ هنا على البَسْملة فقط ، وآثَرَ الدُّخولَ إلى الغرض الرَّئيس مباشرة ، وسَبَبُ ذلك هو اسْتِعْجاله المدحَ وشعوره بعدم الحاجة إلى مطالِعَ ومقدِّماتٍ تذهب به بعيداً عن الغرض الذي يقصده.

ـ وقد يلْتزم المرْسِل أحياناً بالبسملة ويعقبها بـ (أمَّا بَعْدُ) ثمَّ الدُّخول إلى الموضوع مباشرة ، ومِن ذلك رسالة بشر البَلَوي إلى يحيى بن خالد البرمكي يعاتبه ، حيث يقول فيها:

"بسم الله الرَّحمن الرَّحيم: أمَّا بعدُ ، فَإنِّي كتبتُ إليكَ كتباً لم أرَ لِشيءٍ منها جواباً ، وَلَسْتُ . أمتعَ اللهُ بِكَ . أتَكبَّرُ عن مواتَرَةِ الكُتُبِ إلَيكَ ، ولا أسْتَنْكِفُ مِنْ تَرْكِكَ الكِتابَ إليَّ،..."[21].

ومن ذلك رسالة عبد الله بن المقفَّع إلى يحيى بن زياد الحارثي ابتداء في المؤاخاة:

"أمَّا بعدُ ، فإنَّ أهل الفضْلِ في اللُّبِّ ، والوفاءِ في الودِّ ، والكرَمِ في الخُلُق ، لهم من الثَّناءِ الحسَن في النَّاس لِسانُ صِدقٍ يُشِيدُ بِفَضْلِهِم ، وَيُخْبِرُ عنْ صحَّةِ ودِّهِم ، وثِقَةِ مُؤاخَاتِهِم ،..."[22].

فنلحظ أنَّ الكاتِبَ قَدْ بدأ رسالتهُ بـ (أمَّا بعد) وتخلَّص إلى الغرض الرَّئيس ، ولم يستهلَّها ببسملة أو دعاءٍ أو غيرها من العبارات التي تأتي في بداية بعض الرَّسائل ، وكأنَّه آثَرَ الإيجاز في استهلال رسالتهِ ، وربَّما دلَّ ذلكَ على اسْتِعجالِهِ طلب الإخاءِ.

والحال نفسه في رسالة أبي نصر الرَّقاشِي التي بعثها إلى يحيى بن زياد الحارثي في الإخاءِ والمودَّة ، إذْ يقول :

"أمَّا بعدُ ، أصْلَحَكَ اللهُ وأمْتَعَ بِكَ ، في سَترٍ منه وكَرَامَةٍ دائِمَة ، فإنَّ خيرَ ما استفادَ المرْءُ لِنَفْسِهِ ، واسْتَعانَ بهِ على مروءتِهِ ، واعْتَقَدَ لِدُنْياهُ وآخِرَتِهِ ،..."[23].

ومثل هذا الاستهلال نجدهُ في رسالة غسَّان بن عبد الحميد التي يعزِّي فيها أحد أصدقائه:

"أمَّا بعد ، فإنَّ الله لم يرضَ لنفسه أنْ يمضي قضاءه فيما وافق العباد أو خالفهم ، ولم يرضَ من العباد إلاَّ بأن يُسَلِّموا لأمره فيما أحبُّوا أو كرهوا ممَّا أنزل بهم...

نلحظ استغناءَ الكاتب عن عبارات الإستهلال وجعل الأداة (أما بعد) بمثابة جِسْرٍ للتَّخلص إلى الموضوع الرَّئيسي من الرِّسالة ، وربَّما يعود السببُ في ذلك إلى تأثُّر الكاتب بِمُصاب صديقِهِ فارتأى الدُّخول إلى الموضوع مباشرة.

وحَسَبَ الغرض الذي كَتَب لأجْلهِ ، فهذا جَبَل بن يزيد كتبَ إلى صديقٍ له ، في موضوع الإخاء قائِلاً:

"تمَّمَ اللهُ علينا وعليك النِّعَم ، وأجْزَلَ لَنا وَلَكَ مَحاسِنَ صالح القِسَم ، إنَّ الله تبارَكَ وتعالى أجرى بينَنا وبينَك لطيفَ مودَّةٍ ، وخاصَّ أُخُوَّةٍ ، غيرَ أنَّ المعْرِفةَ قَدْ تُحْمَدُ بَعْدَ الخِبْرة، والثِّقة إنَّما تُعْرَفُ بعدَ التَّجْرِبة.."[24].

جاءَ اسْتهلال النَّص مناسِباً لغرضهِ لأنَّه تهنئة بمولود ، والدُّعاءُ بالبَركة من واجب المهنِّئ فهو دعاءٌ مستحب مع ما تبعه في استهلال النَّص من عبارات الدعاء بالهناءِ والإمتاع ودوام السُّرور.

ثانيا: حُسْن التَّخلُّص

"بعدَ الاسْتِهلال يأتي الموضوع الأساسُ في متن النَّص وهو التَّخلُّص أو ما يُسمَّى (حُسْن التَّخلُّص) أو (براعةالتَّخلُّص) ، وقَدْ نبَّه أصحاب البديع على وجوب التأنُّق في هذا الموضع مِنَ النَّص الأدبي"[25]. ومعنى حُسْن التَّخلُّص : "أنْ ينتقِلَ المتكلِّم ممَّا ابْتَدَأَ بهِ الكلام مِنْ غزَل ، أو نسِيب ، أو فخر ، أو وصف ، أو غير ذلك إلى المقصود ، على وجهٍ سهل بِرابِطة ملائِمة، وَجِهة جامِعة مقبولة يَخْتَلِسُ به المقصود اخْتِلاساً رَشِيقاً ، بحيثُ لا يَتَفطَّنُ

السَّامِع للانتقال مِنَ المعنى الأوَّل إلاَّ وقد رَسَخَتْ ألْفاظُ المعنى الثَّاني في السَّمع ، وقرَّ معناهُ في القَلب لِشِدَّةِ الالتِئَام بَينَهُما" لأنَّ السَّمع مُتَرَقِّب للإنتِقال مِن الافْتِتاح إلى المقْصود كيف يكون ، فإذا كان حَسَناً مُتَلائِمَ الطَّرفين حرَّكَ مِنْ نشاطِ السَّامع ، وأعانَ على إصْغاءِ ما بعدَهُ وإلاَّ فبالعَكْس"[26].

ارْتأى الكاتب في هذا النَّصِّ أنْ يتخلَّصَ إلى الموضوع الرَّئيس في الرِّسالة بأداة (أمَّا بعد) ويباشِرَ في خِطاب المرْسَل إليه ، فقد تخلَّص الكاتب بـ (أمَّا بعد) وجعلها كحدٍّ فاصلٍ بين الكلام الذي سبق والكلام الذي سيبدأ ، وكأنَّها تنبيهٌ على ابتداءِ الخطاب المباشر.

. وقدْ يَسْتغني الكاتِبُ عنِ الاستِهْلال ولا يَفْصِلُ بـ (أمَّا بعدُ) بَلْ يتخلص مباشرة إلى غرض رسالته ، وَمِنْ ذلك ما كتبه عبد الله بن المعتز في رسالتِهِ التي يعزِّي فيها صديقاً له بقوله:

"الخُلُودُ في الدُّنْيَا لا يُؤْمَلْ ، والفَنَاءُ لا يُؤْمَن ، ولا سَخْطَ على حُكْمِ الله ولا وَحْشَةَ مع خِلافَتِهِ ، والأنْسِ بِطَاعَتِهِ ، فَأَدِّ مَا اسْتُرِدَّ صَابِرَاً ، وأصْبِحْ لِمَا اسْتُرْجِعَ مُسْلِمَاً..."[27].

يخلو النَّصُّ مِن الاستهلال الذي عرفناهُ خلال تناولنا لأنواع الاستهلال ، فالكاتب هنا قد باشرَ كلامه في التعزية ، واكتفى بإيراد ما يشبه مقدِّمة في جملتين أو ثلاثة ، ومن ثمَّ باشرَ المرْسَل إليه بقولهِ : (فأدِّ ما استُرِدَّ صابِراً...) ، ويبدو أنَّ ظروف كتابة النَّص قد دعت الكاتب إلى تجاوز الاستهلال والدُّخول مباشرة إلى الموضوع.

وعلى الشَّاكلة نفْسِها كتب كلثوم بن عمرو العتَّابي رسالة خالِيةً مِنَ الاسْتِهلالات المعروفة فَدَخَلَ إلى الموضوع الرَّئيسي بِشَكْلٍ سَلِسٍ وموجَزْ ، فكتب يقول :

"لو اعْتَصَم شَوقي إليكَ بِمِثْل سُلُوِّكَ عنِّي لم أبْذُلْ وَجْهَ الرَّغبةِ إليكَ ، ولم أتجشَّمْ مرارةَ تمادِيك ، ولكن استخفَّتْنَا صَبَابَتُنا ، فاحتملْنا قَسْوَتك ، لعظيمِ قَدْرِ مودّتِك..."[28].

فالرِّسالة قد خَلَت مِنَ الإستهلال وتمَّ التَّخلُّص إلى الموضوع بعفويَّةٍ واضحة تبعاً للحالة الشُّعورية التي عاشها الكاتب في لحظة إبداعِهِ الأدبي الرَّفيع.

ثالثا: حسن الختام

"سمِّيَ هذا النَّوع عند بعض البلاغيين بـ (براعة المقطع"[29] ، أمَّا ابن أبي الأصبع فسمَّاهُ (حُسْن الخاتِمة) ، "وادَّعى أنَّه مِنْ مُسْتَخرَجاتِهِ ، بينما هو موجود في كتب غيره مِمَّن تقدَّمه"[30] ، ويُعْرف عند ابن معصوم المدني بـ (حُسْن الختام)[31]. والمقصود به آخر الكلام الذي يقفُ عليه المترَسِّل[32]، "ويجبُ على الكاتب أنْ يَخْتِمَ كلامه بأحسن خاتمة ، لأنَّها آخر ما بقى في ذاكرة القارئ ، (وأحْسَنَهُ ما أذِنَ بانتهاء الكلام حتى لا يبقى للنفْسِ تشوُّقٌ إلى ما وراءَهُ"[33].

لعلَّ الختامَ جاءَ مناسِباً للمقام لأنَّ قوله (والسَّلام) يوحي بالمحبَّة التي كانت سبَبَاً في العِتاب، إذْ ارْتأى الكاتِبُ أنْ يختِمَ بها رسالته للتأكيدِ على ذلك.

وهذا الجاحظ اعتذر في رسالة بعثها إلى محمد بن عبد الملك الزَّيات فقال في خِتامِها : "... واعلم أنَّ لك فِطْنة عليم ، وغفلة كريم ، والسَّلام"[34].

فالسَّلام هنا ـ ربَّما ـ يُمثِّلُ دعوةً للتصافي بين الصديقين وهو رمزٌ لِنَبذِ الخلاف وتوضيح سوء الفهم الذي حصل بينهما.

"إنَّ الخِتام بلفظة (والسَّلام) توحي بالمعاني الإسلاميَّةِ السَّامِية والقصد إلى التواصل مع الآخر. وقد ذكره ابن رشيق القيرواني وجعله واجِباً"[35] فنجدُ أنَّ السَّلام هنا له نبرة تختلف عن النبرة التي حملتها الرِّسائل التي سَبَق الإشارة إليها، فنراها مصطبغة بلونٍ من الوعيد ، إذْ أنَّ السَّلام مرتبِط بِسماع الموعِظة ومخافة الله عز وجل.

ومِن رسائل الهِجاء التي خُتِمت بالسَّلام أيضاً رسالة أبي علي البصير إلى أبي العيناء التي يقول في نهايتها:

"... فإنْ أجبتَ فقد كشفتَ لنا ما لديكَ ، وإنْ اعترفتَ بالعجزِ عَطفَنا ذلك عليكَ ، والسَّلام"[36].

فلفظة السَّلام في خاتمة هذه الرِّسالة تحتملُ استِهزاء الكاتب بالمرْسَل إليهِ ويتبيَّنُ ذلك مِن خلالِ سِياق الرِّسالة التي انتهت بالسَّلام مِنْ غيرِ قصدٍ نراهُ مِنْ قِبَل الكاتِب.

وللجاحظ رسالة يستعطف فيها أحد أصدقائِه قائِلاً في ختامها:

"... سلَّمك الله وسلَّم عليك ، وكان معك ولك"[37].

فهذا السَّلامُ يَخْتَلِف عمَّا سبقه في ألفاظِهِ التي اشْتَقَّها الجاحظ ببراعةٍ وجعلها في سِياقٍ جديدٍ يدلُّ على إبداعِهِ وبلاغتِهِ.

وعلى المنوال نفسِهِ كتب جبل بن يزيد في خِتام رسالته التي عبَّرَ فيها عن شوقهِ إلى صديقٍ له قائِلاً :

"... وسلامٌ عليك ورحمة الله ، وقضى الله عز وجل بالحُسْنى لنا ولك"[38].

ويمكن أن نلاحِظَ مدى التشابه بين خاتمة هذه الرِّسالة مع التي سبقتها ، فقد ختمَ الكاتب رسالته بالسلام وأعقبه الدُّعاء بالحسْنى كما فعل الجاحظ في الرِّسالة التي سبقت.

ـ وقد تختم الرَّسائل بالدُّعاءِ للمُرْسَل إليه ويكثر هذا النَّوع مِنَ الختام في رسائل التعزية والتهنئة خاصَّة ، فهذه رسالة أحمد بن يوسف إلى أحد أصدقائِهِ يهنِّئهُ بِشِفائِه مِنْ علَّةٍ أصابتهُ.

لقد أحْسَن الكاتِبُ في ختامِ رسالتهِ ، إذْ أنَّ موضوع الرِّسالة تطلَّبَ أنْ تختَمَ بالدُّعاءِ للمُرْسَل إليه ، وهذا لا يخْفى على كاتِبٍ بليغٍ مثل أحمد بن يوسف.

والدُّعاءُ بالخير للمُرْسَل إليه كان ختام رسالة ميمون بن إبراهيم إلى الحسن بن وهب يعزِّيهِ في أمِّهِ ويدعو لهُ ولأخيه سليمان بن وهب فيقول:

"... فجعلَ اللهُ لكلِّ عَبْرَةٍ أفَضْتماها ، وجَرعة تجرَّعْتماها في هذه المصيبةِ ، حجاباً لكما مِنْ كلِّ سوءٍ ، ووِقايةً لكُما مِنْ كلِّ محذورٍ[39].

تناول الكاتب في هذا النَّص موضوع التَّعزية إذْ عبَّر عن فقدِ المرْسَل إليهِ لأمِّهِ ، لذلك عزَّاهُ الكاتبُ في الرِّسالة وختمها كما نلاحِظُ بالدُّعاءِ لنيلِ أجرِ هذهِ المصيبة ، وهذا خِتامٌ يُحْمدُ الكاتبُ عليه ، لأنَّهُ خيرُ ما يُقالُ في مثلِ هذه المواقف.

فالكاتِبُ قدْ ذيَّلَ رِسالته بهذا البيت وكان موفَّقا في اختياره ، لأنَّه استطاع الوصول إلى ختامٍ يؤدِّي المعنى المطلوب ، ويَعْلَقُ في الأذهان ، وهي ميزة الشِّعر كما هو معروف.

وهذا الخليفة الرَّاضي أرسل بمكتوبٍ يُعاتِبُ فيه أخاهُ الخليفة المتَّقي . وهما ما يزالانِ صبيَّينِ . على كلامٍ جرى مِنَ الأخير في حضرة المؤدِّب ، فختم الرَّاضي رسالته بهذه الأبيات:

وقد قال الشَّاعر :

"يـــا ذا الـــذي يغضَـــبُ في غيـــر شـــيٍّ أعتِـــبْ فعُتْبـــاكَ حبيـــبٌ إليَّ

أنت . على أنَّك لي ظالمٌ . أعزُّ خلق الله طرّاً عليَّ"[40].

إنَّ هذينِ البيتين مِنَ الشِّعر يُعدَّان ختاماً مناسِباً لِما قصدَ إليهِ الكاتِب ، لأنَّ تأثُّرَ المرْسَل إليه بالشِّعر لا يَقِلُّ قوَّةً عن تأثُّره بالنثر الذي جاء في مقدِّمة الرِّسالة.

وهناك رسائِل أخرى قد يختمها أصحابُها بأبياتٍ مِنَ الشِّعر كرسالة الشاعر أبي العتاهية التي يهجو فيها الفضل بن معن بن زائدة فختمها بهذه الأبيات:

"أمرتُ باليأس من أهل البخل فسألتُهم ، ونُهيتَ عن مَنع أهل الرغبة فمنعتَهم. وفي ذلك أقول:

"فَـرَرْتُ مِـن الفَقـر الـذي هـو مُـدْرِكي إلى بُخْـــلِ مَحْظـــورِ النَّـــوالِ مَنُـــوعِ

إذا أنـتَ كَشَّـفْت الرِّجَـالَ وَجَدْتَهُـم لأعْراضِـهِم ، مِـنِ حـافِظٍ ومُـذِيعِ"[41]

نلحَظُ أنَّ ختام هذه الرِّسالة جاء مُنْسَجماً مع موضوعها ، إذْ حرص الكاتب على تضمينها حديث الرَّسول (عليه الصَّلاة والسَّلام) لأنَّه رأى فيه قولاً سديداً يناسب هدف الرِّسالة ، وكذلك اقتداءً به صلى الله عليه وسلَّم. ويبدو أنَّ الختام بالإقتباس مِنَ القرآن والسُّنة سمة تَمَيَّزَ بها إبراهيم بن المهدي.

المصادر والمراجع

[1]الفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، المؤسَّسَة العربيَّة للطباعة والنَّشر ، بيروت . لبنان: 3 / 395.

[2] الجوهري ، إسماعيل بن حمَّاد ، الصحاح / تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت ، ط4 ، 1407 هـ - 1987م : 4 / 1708.

[3] ابن منظور، محمد بن مكرم الإفريقي المصري ، لسان العرب ، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري ، دار صادر . بيروت ، ط 1 ، مادة رَسَلَ : 11 / 281.

[4] غانم جواد رضا ، الرَّسائِل الفنيَّة في العصر الإسلامي حتَّى نهاية العصر الأموي ، ساعدت جامعة بغداد على نشرهِ ، المكتبة الوطنية ، بغداد ، 1978م : 15.

[5] سورة الأعراف : الآية 79.

[6] سورة المائدة : الآية 67.

[7] سورة الأحزاب : الآية 39.

[8] سورة الجِن : الآية 28.

[9] زكي مبارك ، النثر الفني في القرن الرَّابع ، المكتبة العصرية ، صيدا . بيروت ، 1427هـ . 2006م : 1/ 200.

[10] أنيس المقدسي ، تطوُّر الأساليب النَّثْريَّة في الأدب العربي ، دار العلم للملايين . بيروت ، ط 3 ، 1965م : 324.

[11]أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب ، مؤسَّسة المعارف للطِّباعة والنَّشر . بيروت ، ط 1 ، 1429 هـ . 2009م : 1 / 45.

[12]الدكتور ناظم رشيد ، الأدب العربي في العصر العبَّاسي ، دار الكتب للطِّباعة والنَّشر ، 1410 هـ . 1989م، ص : 153.

[13]السَّيِّد علي صدر الدِّين بن معصوم المدني، أنوار الرَّبيع في أنْواع البديع ، تحقيق: شاكر هادي شكر، مطبعة النُّعمان . النَّجف الأشرف ، ط 1 ، 1969م : 1 / 34.

[14] ابن منظور ، لسان العرب ، مادة (هَلَلَ) : 11 / 701 . 703.

[15]علي بن محمد بن علي الجرجاني ، التعريفات ، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، دار الكتاب العربي . بيروت ، ط 1 ، 1405هـ : 38.

[16] أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصلي، المثل السائر في أدب الكاتب والشَّاعر ، ، المكتبة العصرية – بيروت ، 1995 : 2 / 224.

[17] علي بن محمد بن علي الجرجاني ، التعريفات، ص: 63.

[18] ياسين النَّصير ، الاستهلال فن البدايات في النَّص الأدبي ، وزارة الثَّقافة والإعلام ، دار الشُّؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط 1 ، 1993م : 66 ، 22.

[19] الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر ، البخلاء ، مطبعة النُّور ، عمَّان . الأردن ، 1999م: 10.

[20] أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب، دار الكتاب العربي . بيروت ، ط 1 ، 1405هـ: 4 / 158

[21] أحمد مفتاح ، مفتاح الأفكار في النَّثر المختار ،مطبعة جريدة الإسلام بمصر، 1314هـ: 275.

[22] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب ، 3 / 64

[23] المصدر نفسه ، 3 / 69

[24] المصدر نفسه : 3 / 122

[25] عز الدين إسماعيل، أنوار الرَّبيع في أنواع البَديع ، دار الثقافة العربية،مصر،(د.ط)،(د.ت).: 3 / 24

[26] المصدر نفسه ، 3 / 240.

[27] محمد بن يحيي الصولي، كتاب الأوراق، مطبعة دار الكتب، مصر، 1987م. ص: 294.

[28] أبو إسحاق ، إبراهيم بن علي ، زهر الآداب وثمر الألباب، دار الثقافة العربية،مصر : 4 / 1056.

[29] شهاب الدين ، محمود بن سليمان، حسن التوسُّل إلى صناعة التَّرسُّل ، دار الكتاب العربي . بيروت ، ط 1 ، 1405هـ، ص: 255.

[30] عبد العزيز بن الواحد، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ، دار الثقافة العربية،مصر، ص: 616.

[31] المصدر نفسه ، ص : 6 / 324.

[32] شهاب الدين ، حسن التوسُّل إلى صناعة التَّرسُّل : 255.

[33] عز الدين إسماعيل، أنوار الرَّبيع في أنواع البديع : 6 / 324.

[34] أبو إسحاق، زهر الآداب وثمر الألباب : 2 / 108.

[35] القيرواني ، ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشِّعر وآدابه ونقده : 1 / 239.

[36] أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب : 4 / 163

[37] جمال الدين ، محمد بن نباتة ، سرح العيون ، دار الكتاب العربي . بيروت ،ص: 146.

[38] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب : 3 / 137

[39] المصدر نفسه : 4 / 36 ،

[40] أبو العتاهية ، ديوان أبي العتاهية، دار الكتاب العربي . بيروت ، ص: 383.

[41] المصدر نفسه ، ص: 239.